

الإسراء: بدايات النحول ومقدمات الانتصار

✍ الأستاذ محمد عبد الحليم ريشي (*)

واكملت بالعروج لسدرة المنتهى وختمت بالعودة إلى ذات المرقد الأول للمصطفى عليه السلام في لحظات خارج الزمن البشري في ومضة من عالم الملكوت الإلهي الرحيب: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياته إنه هو السميع البصير) [الإسراء/1].

ولنا أن نبدأ محطات هاته الرحلة الكريمة مما يلي:

1- اختصار الزمن فيما سبق: هل

كانت معجزة الإسراء والمعراج خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم، أم سبقت لغيره من الأنبياء عليهم السلام.

إن هاته المعجزة الخارقة التي طويت فيها أميال الأرض وآفاق السماء لم تحصل إلا للمصطفى عليه السلام. وقد تكلم القرآن الكريم عن نزول آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض بعد الابتلاء الذي

كانت حركة بين نقاط ثلاث ولكنها لم تكن كباقي الحركات ولا التحركات، حركة تلاشت فيها القوانين الطبيعية وبقي الصدى الأعلى للمعجزة الحقة التي أجراها العلي القدير.

حركة اختصرت فيها المسافات وتعطلت فيها قوانين السرعة والزمن والكتلة والكثافة، إنها معجزة الإسراء والمعراج المحمدي.

كلما تقع أعيننا على باحات المسجد الأقصى المبارك، وكلما نملاً أحداقنا بأشجار الزيتون المنتشرة داخل الحرم القدسي⁽¹⁾ بين مسجد الصخرة والمسجد الأقصى والمصلى المرواني وحائط البراق تقفز إلى أذهاننا تلك الرحلة الفذة العجيبة التي أكرم بها المصطفى عليه السلام، تلك المسيرة الملكوتية التي ابتدأت من المسجد الحرام وتوسطت بالمسجد الأقصى

(*) إمام مسجد الضفة الخضراء، وأستاذ بكلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.

حلّ به وبأهله في الأكل من الشجرة: (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) [الأعراف/24-25].

لكن القرآن لم يتحدث عن كيفية الهبوط ولا عن جنسه والظاهر من القرآن أنه نزول من مكانة عليّة إلى العناء في الأرض بالعمل والكدح فيها.

كما تحدث القرآن عن رسول آخر رفع مكانا عليا وهو إدريس عليه السلام: (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) [مريم/26-27]. وهل الرفع رفع المكانة المعنوية كما قيل في حق النبي صلى الله عليه وسلم: (ورفعنا لك ذكرك) [الشرح/4] أم هو رفع مكاني حقيقي كما ورد في بعض الأخبار من أنه مدفون أو حي في السماء الرابعة [متفق عليه].

أما النبي الآخر الذي ورد بحقه هذا فهو عيسى عليه السلام: (واذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا) [آل عمران/139]. وهل هو رفع قبل الوفاة أو بعدها وهل هو حي أم متوفى بعد تمام أجله، أم أنه أميت ثم أحيي، ومتى يحيى أبعد الرفع أم في آخر الزمان خلاف طويل بين العلماء⁽²⁾.

إلا أن ظاهر القرآن يوحي بأنه الرفعة في الدرجة والمنقبة لا المكان والجهة⁽³⁾،

وقد صرحت أحاديث المعراج بأن مكان عيسى هو في السماء الثانية، ولا يدل هذا على أكثر من رفع المكانة والإنجاء من يد اليهود الغادرين.

أما غيرهم من الأنبياء فلم يرد في حقهم ما يدل على ثبوت معجزة كهاته، وقد يقال فإن مكائهم في مراتب السماوات يدل على ذلك، والجواب أن العلماء يختلفون في كونه رأيهم بأرواحهم أم بأجسادهم وأرواحهم، والظاهر أن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم، وأحضرت للمصطفى عليه السلام تكريما له وتشريفا⁽⁴⁾، لأن حياتهم ثابتة كحياة الشهداء التي أثبتها الله تعالى: (بل أحياء عند ربهم يرزقون) [آل عمران/139].

كما ورد شبيها لهاته المعجزة مذكروا من كرامة لعالم الكتاب صاحب سليمان الذي أحضر عرش بلقيس من اليمن في طرفة عين كما ورد في سورة النمل: (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي) [النمل/40] وقد وقع الخلاف بين العلماء هل كان ذلك كرامة لأصف بن برخيا⁽⁵⁾، أم كان معجزة لسليمان.

وقد رجّح إمام المفسرين الإمام الرازي أن الذي عنده علم الكتاب هو

سليمان عليه السلام ذاته⁽⁶⁾. والحاصل أن كل ما وقع من رفع أو تقريب أو إدناء لمكانة أو اختصار للزمن لم يبلغ مبلغ الإعجاز والتكرمة الحاصلة في معجزتي الإسراء والمعراج الخاصتين بنبي آخر الزمان.

2- هل الإسراء والمعراج معجزتان ؟:

إن القدر المتفق عليه بين العلماء أن المعجزة الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم تلك الكلمات والآيات المعجزة في نظمها وبيانها وبلاغتها والمتعبد بها من أول سورة الفاتحة إلى آخر الناس.

فالمعجزة الخاصة المتحدى بها هي

القرآن: وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)) [البخاري].

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية موقوتة لأصحابها، وعندما عجز القرشيون عن معارضة القرآن بعدما استنفدوا كل أغراضهم في اتهام النبي بالسحر والكهانة والجنون وأخذ الكتاب عن معلمين أو نقله من أساطير الأولين سارعوا إلى المطالبة بالمعجزات الحسية التي وقعت للأمم السابقة.

فقد أخرج ابن هشام: أن أشراف قريش اجتمعوا وسألوا النبي أن يسأل ربه أن يوسع عليهم مكة، ويسيطر لهم البلاد، ويفجر لهم الأنهار كأَنْهار الشام والعراق، وأن يبعث قصي بن كلاب بعد موته ليسأله عن خبره وأن يتزل ملكاً ليصدقه أو أن يعطيه القصور ليعتني من المشي في الأسواق بالتجارة⁽⁷⁾.

وقد حكى القرآن هاته الممارسة في سورة الإسراء في الآيات: 88-93.

وقد علل القرآن الكريم في آيات كثيرات عدم إجابته قريش في إنزال الآيات الحسية بعدم استعدادهم للإيمان بها، ولأنها لو أنزلت ولم يؤمنوا فإن مصيرهم الهلاك بعذاب الاستئصال كما وقع للأولين، وبما أن مقصود الرسالة المحمدية هو الدوام والخلود فإن الله أراد بهذه الأمة خيراً حين صرف العذاب حال الإنكار، فالعذاب الواقع بالمشركون ليس بالاستئصال ولكن بصروف الدهر ونوازله في الصراع المؤبد بين الحق والباطل⁽⁸⁾.

ولنا أن نقراً في هذا السياق هاته الآيات: (ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين)[الأنعام/7]. (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله)[الأنعام/111].

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) [الأنعام/124].

إنه المنطق المعارض الذي يرغب في رؤية المعجزات والخوارق المادية، والذي يرفض الانصياع للبيان والحجاج الفكري، كل هذا لأنه يود حسم القضايا بقضاء خارجي نافذ على المدركات العقلية والحسية، ولكن القرآن ينأى بمعركته عن هذا المنحى الذي يقودها إلى خارج الأطر الإنسانية الممكنة إلى حسم بمعجزات خارقة قد يعقبها الجحود ومن ثم العذاب المهلك المبيد⁽⁹⁾.

وإذا قدمنا هاته المقدمة الطويلة في أن المعجزة الخاتمة كانت بيانية عقلية صرفة فما هو موقع معجزتي الإسراء والمعراج اللتين وقع بها الخرق الحسي حتما؟

والجواب أن هاتين لم يكن مقصودا بهما التحدي ابتداء كالقرآن، إذ الشرط في المعجزة التحدي إذ المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وعدم المعارضة، وقيل هي أمر قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة والرسالة⁽¹⁰⁾.

فهاتان المعجزتان كانتا تسلية وتثبيتا وإكراما للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يقصد بهما التحدي ابتداء، وعلى الأقل بالإسراء لأن الحكاية لقريش كانت على الإسراء دون المعراج. وإن حملنا دلالات

التحدي بعد الحكاية عن الإسراء حيث قالت قريش: هذا والله الأمر المبين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟⁽¹¹⁾.

والدليل على ذلك أن الإسراء لم يكن من اقتراحهم ولم يلحقهم عذاب الإستئصال حال إنكارهم. ونظير الإسراء والمعراج الأحاديث الخاصة بالمعجزات الحسية الواردة في كتب الحديث والشمائل المحمدية ودلائل النبوة مثل نبع الماء من أصابعه حتى شرب وتوضأ زهاء ثلاثمائة [متفق عليه] أو تسبيح الحصى والطعام في يديه [البخاري]، وحنين الجذع إليه [البخاري]، وكون قلبه لا ينام [البخاري]، وكذا أخباره بالمغيبات [البخاري]. فكله واقع في دائرة التسلية والتثبيت والتكرمة له ولأصحابه. أما الإعجاز الحقيقي فهو ذلك النظم القرآني المعجز. كما قال الإمام البصري:

جاء النبيون بالآيات فانصرفت

وجئتنا بكتاب غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد

يزينه جلال العتق والقدم

3- الإطار الزماني والمكاني

للمعجزة: اختلف العلماء في التوقيت

الزماني والمكاني لحادثة الإسراء والمعراج،

كما اختلفوا في كونه كان على الحقيقة بالروح والجسد أم كان بالروح وحدها أم كان رؤيا صادقة وهل تعدد أم كان شيئا واحدا.

وظاهر أحاديث البخاري ومسلم أن الإسراء والمعراج كانتا حادثتين متعاقبتين في ليلة واحدة، مع العلم أن القرآن أشار إلى الإسراء في سورة الإسراء وأشار إلى المعراج في فواتح سورة النجم، وكلاهما سور مكية.

في أي سنة وفي أي شهر كان؟

اختلفت الروايات بين السنة العاشرة والحادية عشر والثانية عشر، وأغربت البعض فاعتبرته بعد الهجرة، وشدت أخرى فنقلت أنه قبل البعثة.

كما اختلف رواة السيرة في ترتيب حوادث الفترة المكية فابن هشام يسوق الحادثة قبل وفاة أبي طالب وخديجة وقبل الذهاب للطائف⁽¹²⁾.

إلا أن الرواية القوية في توقيت الإسراء هي رواية ابن سعد في الطبقات حيث جعلها بثمانية عشر شهرا قبل الهجرة وعليه تكون في منتصف العام الحادي عشر، وهو منتصف فترة الرسالة كلها، وعليه يكون ذلك الارتفاع للملكوت الأعلى قد وقع في منتصف عمر الرسالة الخاتمة ولذلك أكثر من دلالات.

لقد قدمنا بأن الإسراء كان تكملة للمصطفى عليه السلام وكان وميض الأمل الأول في بداية الانتصارات الإسلامية وانقلاب الموازين لصالح الدعوة المحمدية.

لقد جاء هذا التكرم فرجا ويسرا بعدما تعسرت الأوضاع وضافت الدنيا في وجه الدعوة، حيث إن أغلب الصحابة تشتتوا بين منافي الحبشة حيث هاجر قرابة التسعين منهم⁽¹³⁾، وبين السجون والأغلال والأخشاب التي نصبته قريش للمستضعفين.

ولنا أن نرصد لهذا العسر والضيق ما يلي من صور قائمة:

1- هجرة الكثرة الكاثرة من السابقين الأوائل إلى الحبشة.

2- ارتفاع درجة الإيذاء للمستضعفين من العبيد والضعفاء داخل قبائلهم.

3- علو شأن حزب المستهزئين المتربصين برأس الدعوة، واتخاذ الاستهزاء واللمز سياسة للتحطيم النفسي.

4- إعلان الحصار الاقتصادي والمقاطعة التجارية للمسلمين ومن يحميهم من أشرف مكة كبنی هاشم وبنی المطلب⁽¹⁴⁾.

5- وفاة خديجة أم المؤمنين، وكذا أبو طالب النصير الأول للنبي في مكة في عام واحد سماه النبي صلى الله عليه وسلم بعام الحزن، ومما قاله نفسه مصورا فداحة الكرب النازل به: ((والله ما نالت مني قریش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب))⁽¹⁵⁾.

6- تصاعد الوحشة والوحدة والصدود في مكة البلد الكنود مع تشتت الصحابة والخروج المنهك لبني هاشم من الحصار الذي دام ثلاث سنوات كاملة.

7- الرد القاسي الذي تعرض له المصطفى في الطائف بعد عرض الدعوة على ثقيف، والترجمة السيئة لتحالف الكفر في القريتين بتسليط السفهاء والصبيان عليه حتى أدموا قدميه الشريفتين.

وهنا تنفلق شفتا المصطفى بذلك الدعاء الحاني المرفوع لله الذي يعلم الخيء في السماوات والأرض، ذلك الدعاء المترجم لصلابة العقيدة وقوة اليقين عند المصطفى عليه السلام حيث قال مناجيا اللطيف الخبير: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته

أمرى، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو أن يزل بي سخطك، لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)).

إن هذا الدعاء هو ترجمة صادقة للموقف بما قاله الله تعالى في خاتمة سورة هود معقبا على قصص الأنبياء السابقين وصراعهم مع قومهم: (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون)[هود/123].

4- إن بعد العسر يسرا ،مقدمات

الإسراء والمعراج: تعرضنا فيما سبق إلى حالة الضيق والحزن التي كان يجيها النبي صلى الله عليه وسلم بعد قسوة مكة وصدود الطائف ووحشة البيت دون خديجة وضعف الناصر بعد هلاك أبي طالب وقفر الطريق بعد هجرة الصحابة وكآبة البطحاء التي سالت عليها دماء المستضعفين.

ويترجم هاته الحالة الكئيبة حديث عائشة التي سألت النبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال: ((لقد لقيت من قومك وكان أشد ما

لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي
على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجني
إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على
وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب))
[متفق عليه].

وأن يمشي الإنسان هاته المسافة كلها
دون وعي لهو خير دليل على تلك الحالة
التي استعرضنا بعض مسبباتها، وهل
الرسول إلا بشر يأسى ويحزن كما يحزن
الموتورون.

لقد بدأت مقدمات اليسر والفرج
تلوح بعد الدعاء الحائي، وبعد ما سال
الدم الشريف في سبيل الله من قدمين
قطعتا صخور ووهاد وجبال تهامة لتبليغ
دعوة الله للقرية الثانية في الحجاز.
وتتابعت مفاتيح الفرج واليسر كما
يلي:

1- بداية تغير عواطف الجليل الجديد
تجاه حامل الدعوة، فلما كان الآباء
والأشياخ يسارعون في الكيد للدعوة
كانت دعوات المصطفى تصيب موقعها
من قلوب الأبناء والأحفاد وحتى بعض
المقدمين في العداوة، ففي الطائف حنّ له
أبناء ربيعة، عتبة وشيبة، وفي مكة أحاره
المطعم بن عدي وأبناءؤه، وبدأت قريش
تكلّ من الحرب الدائرة.

إن الدعاء الذي ناجى به محمد ربه
والفطرة السليمة للخير التي تعمر قلبه هي
التي جعلته لا يتطلع إلى رؤية القوم صرعى
بقارعة سماوية، وإنما جعلته يتشوّف إلى
يوم الهداية المنشود، فقد جاء في تمة
حديث عائشة السابق: ((فلم استفق إلا
بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا
بسحابة قد أظلّني فنظرت فإذا فيها جبريل
فناداني، فقال إن الله عز وجل قد سمع قول
قومك وما ردوا عليك، وقد بعث ملك
الجال لتأمره بما شئت، قال فننادني ملك
الجال وسلّم علي ثم قال: يا محمد إن الله
سمع قولك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني
ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن
شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول
الله: ((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم
من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)).

2- التصديق التاريخي لأهل الكتاب
الأولين بنبي الرحمة فبعد صدود القريتين
العظيمتين مكة والطائف وانتهاجهما
سياسة الرد القاسي والحصار الاقتصادي
والعنف النفسي، بعث الله غلاما على دين
النصرانية ومن مكان جغرافي بعيد هو قرية
نينوى العراقية، فأخذ قطفا من العنب
بإشارة من سيده القرشيين الذين كانا في
مصيفهما في أعالي الطائف، ويقدمه
للمصطفى عليه السلام الذي يتعرّف عليه

ويعرفه بني قريته: من قرية الرجل الصالح
يونس بن متى فأكب عداس على رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه
وقدميه⁽¹⁶⁾. وكانت الإشارة والدلالة في
أنه إذا كفر الأقربون فإن الله يبعث البعيد
الغريب ليصدق محمدا الشريد الطريد في
دعوته.

3- إيمان الجن بعه عرض الدعوة
عليهم فقد روت الآثار أن النبي لقي نفرا
من الجن بنحلة بعد منصرفه من ثقيف،
فقام يصلي من الليل فاستمعوا منصتين إليه
وتجمعوا حوله وآمنوا به، وقد أشار القرآن
لذلك في موضعين: (وإذ صرفنا إليك نفرا من
الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا
فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين)[الأحقاف/
29-32]. وكذا في فواتح سورة الجن
حتى قوله تعالى: (وإنه لما قام عبد الله يدعوه
كادوا يكونون عليه لبدا)[الجن/19]. أي
تجمعوا عليه وتراحوا لسماع هذا الذكر
الفريد المنسي من قرون الفترة والجاهلية.
وهكذا عندما يعرض ثقل الإنس تأتي
بشائر الخير والقبول مع ثقل الجن.

إنه وميض الأمل ونور الفلاح يزرغ
في ليل قمامة الحالك ليتسلل إلى بيوت مكة
بيتا بيتا لتسطع شمس في المدينة بعد موسم
الحج القادم من السنة نفسها حيث يسلم
النفر الأوائل الستة من يثرب استباقا

لبشارات اليهود بني آخر الزمان، أليس
بعد العسر يسرا. أليس بعد العسر يسرا.

5- الجسد الشريف والوحدة الروحية

من الكعبة إلى البيت المعمور: ابتدأ الرحلة
الخارقة من المسجد الحرام⁽¹⁷⁾، وكانت
الرحلة تكرمه وتسليه للمصطفى إيدانا
بانتهاء عتمة المكاره والصدود، وبداية
لانحسار بحر الاستهزاء والغمز والهمز
وتسليط السفهاء والأشقياء، وقد سبقت
ببشائر النجاح كإيمان عداس النصراني،
 واجتماع الجن لبدا لسماع كلمات الله
الحقة.

وقد هيأ المصطفى لهاته الرحلة بأن
شق عن صدره وغسل قلبه وهي رموز
ذات دلالات واضحة استعدادا لهذا السفر
الذي يعجز عنه البدن البشري بخصائصه
المعروفة.

وقد جاء في الحديث: ((فأثبتت
بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح
صدري إلى كذا وكذا أي إلى أسفل بطنه
فاستخرج قلبي ثم أعيد مكانه ثم حشي
إيمانا وحكمة)) [مسلم]. ثم أتى عليه
السلام بالبراق وهو الدابة التي كان يركبها
الأنبياء قبله وقد سخرت لهم لطي الأرض،
فهو يضع حافره عند منتهى بصره، وكأنه
يمشي بسرعة الضوء، وكلمة براق يشير

اشتقاقها إلى البرق أي كأن قوة الكهرباء
سخرت في هذه الرحلة⁽¹⁸⁾.

وعند وصوله بيت المقدس ربطه النبي
صلى الله عليه وسلم بالحائط أخذاً بالحزم
والتوكل رغم أنه دابة مسخرة من الله
للأنبياء، لكن المصطفى يعلمنا أسباب
الحيطة والعمل بالحزم وهو في سبحات
الملكوت.

ثم دخل النبي المسجد وحشرت له
أرواح الأنبياء فصلى بهم ركعتين إيذاناً
بختتم الرسالات وإعلاناً بصدارة هذا الدين
على كل ما قبله تصديقا لقول الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) [المائدة/48].

كانت هاته الإمامة في الصلاة والدين
إشارة قوية إلى إمامة الدنيا التي يجب أن
يكون عليه خلفاؤه وورثته، وكانت
صلاته في بيت المقدس الذي هو مهد
الرسالات ومهبط الكلمات الإلهية إيذاناً
بانتقال الرسالة من بني إسرائيل إلى بني
إسماعيل.

كما كانت هاته الصلاة بالأنبياء
إتماماً للبناء الرسالي التوحيدي من لدن آدم
حتى محمد صلى الله عليه وسلم: ((مثلي
ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً
فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية
من زواياه فجعل الناس يطوفون به

ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه
اللينة؟ فأنا تلك اللينة وأنا خاتم النبيين))
[مسلم].

وبعد هاته الإمامة المباركة قدمت
للنبي صلى الله عليه وسلم ضيافة السفر
قبل عروجه للسماء فقد جاء في الحديث:
((ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن،
فأخذت اللبن فقال هي الفطرة التي أنت
عليها وأمتك)).

وليست صلاته بالأنبياء بشيء
مستغرب لأنهم أحياء عند ربهم إذ هم
أفضل من الشهداء قطعاً والشهداء أحياء،
وقد أذن الله بهذا الحشر الأصغر لأرواح
المرسلين لإبلاغ الدنيا بوحدة الرسالة
التوحيدية، ويدل على هاته الوحدة
الفكرية والروحية أن النبي صلى الله عليه
وسلم كلما دخل السماء رحب به مقدم
المقربين من الأنبياء فمن السماء الأولى إلى
السابعة لقي آدم فابني الخالة يحيى وعيسى
ثم يوسف فإدريس ثم هارون فموسى
وأخيراً إبراهيم عليه السلام، وكان تحيتهم
جميعاً للوافد الكريم: مرحباً بالأخ الصالح
والنبي الصالح.

إنها الوحدة الفكرية والروحية لرسالة
التوحيد على مرّ الدهور والعصور ومع
انتهاء الإسراء بدأت رحلة الآيات الكبرى
في المعراج التي ابتدأت من صخرة بيت

المقدس وانتهت بسدرة المنتهى حيث لم تطأ قدما مخلوق غير محمد ذلك المكان الشريف وهناك فرضت الصلوات الخمس حيث فتح باب العروج الروحي لاتباع الملة المحمدية آناء الليل وأطراف النهار.

6- من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى، الدلالات الحاسمة: لقد تقدم أن الإسراء والمعراج كان تجلية لمعاني الوحدة الفكرية بين الرسالات السماوية وكان إيذاناً بمد جسور بين متديني الرسالات المتبوعة، إلا أن الدلالات الكبرى لهاته المعجزة التي توسطت حياة الرسالة المحمدية هي الإعلان عن نهاية مرحلة الآلام والحزن وبداية مرحلة الانتصار والانتشار.

كما كانت إعلاناً عالمياً بهيمنة الإسلام على الديانات السابقة خاصة الإسرائيلية منها، حيث ظلت النبوة مقصورة على بيوتات بني إسرائيل وظل الوحي يتزل في روابي فلسطين والشام فجاء ذلك الربط العجيب بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى من باب أن الإشراف والهيمنة والأستاذية سوف تعود لمكة.

كما نجد إشارات الارتباط الوحدة في سورة أخرى: (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) [التين/1-3] وهي مناطق

الوحي الثلاثة لموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

إن هذا الإعجاز وهذه التكرمة للمصطفى كان ممكناً لو تم بين المسجد الحرام والسماوات العلى لكن الله أراد لمحمد المرور من بيت المقدس والصلاة فيه وكان هذا حفل تسليم لمفاتيح المدينة المقدسة لتصير في كفالة أتباع الدين الحنيف الذين يؤمنون بكل الرسل السابقين: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله) [البقرة/ 285].

كما أن رؤية النبي لنهري النيل والفرات تحت سدرة المنتهى كان بشارة بانتقال هاته الأراضي إلى حوزة الدين المحمدي، ورداً صريحاً على دعاوى اليهود في قولهم: ملكك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل.

إن هاته الإمامة توجب على الأمة أن تكون إماما في كل معاهد العز والرفعة والأستاذية، وإن البراق الذي ركبته محمد صلى الله عليه وسلم لابد أن تركبه الأمة لتصل إلى مفاتيح السعد والرشد قبل الأقوام الآخرين، وإن معراج محمد إلى السماوات العلى يوجب على الأمة العروج الدائم للمعالي والبعد عن الحضيض والفساسف. ولا يمر ذلك دون الكدح والجد والصبر والمصابرة والمراطة فإن بعد العسر يسرا وإن بعد الضيق فرجا وإن في الظلمة والدلجة إسراء نحو الفجر ومعراجا نحو النور.

الهوامش

- (1) بين العلماء خلاف في حرمة المسجد الأقصى.
- (2) انظر تفسير الرازي ج 8 ص 20؛ والقرطبي ج 4 ص 65
- (3) تفسير الرازي ج 8 ص 62 وانظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح للكشميري.
- (4) انظر فتح الباري ج 7 ص 262، ودلائل النبوة للسيهقي ج 2 ص 388.
- (5) انظر تفسير القرطبي ج 13 ص 136 وتفسير ابن كثير ج 3 ص 352
- (6) انظر تفسير الفخر الرازي ج 24 ص 170
- (7) ابن هشام: السيرة النبوية ج 1 ص 297
- (8) محمد عبد الحليم بيشي: حرية المعتقد في الإسلام دراسة تأصيلية ص 357
- (9) محمد عبد الحليم بيشي، المرجع السابق ص 357
- (10) التفتازاني: شرح المقاصد في علم الكلام ج 5 ص 11.
- (11) ابن هشام: السيرة النبوية ج 1 ص 398
- (12) ابن هشام: السيرة النبوية ج 2 ص 37.
- (13) هاجر إلى الحبشة حوالي 83 رجلا و 19 امرأة.
- (14) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 59.
- (15) ابن هشام: المصدر السابق، ج 2 ص 58.
- (16) ابن هشام: المصدر السابق، ج 2 ص 26
- (17) اختلف العلماء في مكان بداية الإسراء وفي زمنه سنة وشهرا، لكن جرى عمل الناس على اعتباره ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، والخلاف في ذلك لا يضر.
- (18) محمد الغزال، فقه السيرة، ص 129.